آثار المرحوم حسن توفيق العدل

١٨٦٢ - ١٩٠٤

للاستاذ محمد عبد الجواد
الاستاذ بمعهد العلمات بالزمالك

كلمة :

يعتبر المرحوم حسن توفيق العدل من أعلام دار العلوم ، ومن خيرة العلماء والأدباء في عصره . درس العلوم، معقولها ومنقولها، على عظماء العلماء بالأزهر ، وحصل على إجازات أربعة من كبارهم وسنه دون العشرين ، وصار يعد بحق من العلماء .

واليك فقرات من إجازات الأساتذة المغفور لهم :

(١) الشيخ ابراهيم السقا بتاريخ شوال سنة ١٢٩٧ هـ

(٢) « حسن العدوى « « « ١٢٩٧ هـ

(٣) « محمد الانبابى شيخ الاسلام فى شعبان سنة ١٢٩٨هـ

(٤) « محمد البنانى الشنقيطى « « ١٢٩٨هـ

قال الأول :

« ولما كان منهم الامام الكامل ، والهمام الفاضل ، والجهبذ الأبر ، اللوذعى الأريب ، والالمعى الأديب ، ولدنا الشيخ حسن توفيق الملقب بالعدل أيده الله بالمعارف ونصر . طلب منى اجازة ليتصل بسند سادتى سنده ، ولا ينفصل عن مددهم مدده ، وينتظم فى سلك قد فاق غيره وبهر . فأجبته وان لم أكن لذلك أهلا ، رجاء أن ينشر العلم وأنال من الله فضلا . وأنجو فى القيامة مما للآثمين من الضرر . فقلت أجزت المومى اليه بما تجوزلى روايته ، أو تصح عنى درايته ، من كل حديث وأثر ، ومن فروع وأصول ، ومنقول ومعقول ، وفنون اللطائف والعبر »

وقال الثانى :

« هذا ، وممن انتظم فى سلك هذه العصابة الموفقة ، ورام اللحوق بالسلف الماضى بما تلقاه وحققه ، الهمام الفاضل ، والشاب الصالح الكامل ، ولدنا الشيخ حسن توفيق الملقب بالعدل ، السكندرى الصديق . وقد طلب منى أن أجيزه بجميع مروياتى ، وبما تجوز لى وعنى روايته ، فقلت ، وإن كنت لست أهلا لأن اجاز ، فضلا عن كونى أجيز : قد أجزت الشيخ المذكور بجميع مروياتى وبما تجوز لى وعنى روايته »

وقال الثالث فى إجازته :

« وممن اعتنى بعد ماانتنى ، وقطع المفازة ، فطلب الاجازة ، ولدنا النبيه النبيل ، والعالم النجيب الجليل ، والشاب الصالح الكامل الألمعى ، الشيخ حسن توفيق الملقب بالعدل ، السكندرى الشافعى ، لازال بعناية ربه ملحوظا ، وبحسن لطفه الخفى محفوظا ، بعد أن لازمنى مدة مديدة ، وأخذ عنى علوما عديدة . فلما لاح لى كوكب صلاحه ، وفاح لى نشر مسك فلاحه ، ورأيته أهلا لتلك الصناعة ، وجديراً بتعاطى هاتيك البضاعة ، حيث أخذ من الفنون بأقوى طرف ، وأراد الاقتداء فى أخذ الأسانيد بمن سلف . فبادرت لطلبه ، باعطائه بلوغ أربه ، فلم أثن عنه عنان العناية ، بل أجزته بما يجوز لى رواية ، ويصح عنى دراية ، من فروع وأصول ، ومنقول ومعقول ، وأذنته بالتدريس ، وأن يتخذ العلم خير جليس »

وقال الرابع :

« أما بعد فلما كان الأستاذ الفاضل ، والألمعى الكامل ، والعالم الأريب ، والعامل الأديب ، الاستاذ الشيخ حسن توفيق ، السكندرى الأزهرى الملقب بالعدل الشافعى الصديق ـ من أولى الدراية والنجابة ، ومن ذوى الاجتهاد الذين أخذوا من الفنون بأقوى طرف . إذ ظهر لى منه أمارات نجابته ، ولموع سلامته ، وباحثته فى العلوم ، فظهر كالبدر بين النجوم . ورأيت تآليفاته ، فوجدتها عظيمة للعظماء ، كثيرة النفع للعلماء . منها قصيدته التى فى

مصطلح الحديث ، يعجز عنها كل قديم وحديث ، متغزلا بها موريا للمقصود من المصطلح . وشرحه عليها يشجى النفوس المسمى باظهار الفرح ، وقد طلب منى الاجازة بما تجوز لى روايته ، وتصح عنى درايته . فقلت وإن كنت لست أهلا لذلك: قد أجزت الإستاذ الموما اليه بما تجوز لى روايته ، وتصح عنى درايته ، من فروع وأصول ومنقول ومعقول ، وجميع الفنون ، كما أجازنى بذلك مشايخى الأعلام مشايخ الاسلام وأنا أجيز الموما اليه اجازة خاصة أيضاً فأقول : قد أجزت الشيخ المذكور بكتاب البخارى ومسلم وباقى كتب الأحاديث والتفاسير وعلم النحو وباقى العلوم العربية وأذنته بالتدريس ليجعل العلم خير جليس » . اهـ

ولم يقتصر على تحصيل العلوم الأزهرية ، بل درس بعض العلوم الكونية كالجغرافيا والتاريخ والرياضة ، وفوق ذلك تعلم اللغة الفرنسية .

دخل دار العلوم ، وهو كتلة علمية ، ومجموعة ثقافية ، وقضى فيها أربع سنوات ، تخرج بعدها ، فرقة وحده سنة ١٨٨٧ م

اختارته نظارة المعارف معلما للغة العربية بالمدرسة الشرقية ببرلين ، ولعله أول مبعوث لمثل هذه المهمة فاحتفلت الدار بتوديعه ، واحتفل به أساتذته وزملاؤه احتفالا رائعاً ، فى ليلة الثلاثاء ٦ من سبتمبر سنة ١٨٨٧ ، دعوا لشهوده جمعا كبيراً من العظماء والكبراء ، وتبارى الخطباء والشعراء فى تعداد مناقبه . وكان منهم المغفور له « الشيخ أحمد مفتاح » و« الشيخ أحمد الحملاوى » و « الشيخ محمد شريف سليم » و« قدرى افندى » ومن قصيدة الشيخ أحمد مفتاح :

لا تبتئس بالنوى يا قلب إن ظعنوا هم فى صميمك إن بانوا وإن قطنوا
بانوا فبت أناجى بعد بينهم عيشا قضيناه لا بؤس ولا حزن
سقى ديارهم فى كل مربأة دمع السرور بهم أو عارض هتن

إلى أن قال فى بيت ضمنه اسم «برلين» وهى المدينة التى يقصدها .

سر بالسلامة واتلوها مصحفة بالبر واللين أو بالبر واللبن

وفى القصيدة مايدل على قيام نضال بينه وبين نفسه فى سفر المحتفل به وأنه أقنعها فى بيت كان آية من آيات حسن التخلص إلى مدح المودع ،قال :

فاسترجعت ثم قالت : ليس من شيمى عتب الصديق ولكن مقصدى (حسن)

وقال الشيخ الحملاوى :

أقلوا العذل فى لومى أقلوا فقلبى من نـواهم مضمحل
أمل بذكر غـير همو دوامـا وإن ذكـروا فقلبى لايمل
رعى الله أويقـات تقضت وأياما لهـا فى الدهر فضل

إلى أن قال: وقد حسدتك أوغاد ولـكن حسودك لايسود وأنت تعلو
وكيف وأنت « توفيق » المعالى سمير للعلاء حسن » و« عدل »
ألا يـا سائق الوابور مهلا فبعـد البعـدّ خطبى قـد يحل

وفى آخر البيت مايشير بخاتمة حياة المترجم .

وقال صديقه المرحوم الشيخ محمد شريف سليم .

كوكب الشرق أينما سار نور ظاهراً فى الوجود أعظم مظهر
شرف الله قدره لمزايـا جلت عن أن تعـد وتحصر

ركب الباخرة من الأسكندرية يوم الثلاثاء ١٣ من سبتمبر سنة ١٨٨٧ فوصل إلى برلين فى ٢٠ منه حيث كان فى انتظاره مدير المدرسة الشرقية الذى أحله هناك بمنزله .

وقبل ركوبه الباخرة تشرف بالمثول بين يدى الخديو توفيق ، فأهـداه صورته ، ومنحه الوسام المجيدى الخامس . وقد طلب إليه المرحوم شكرى باشا رئيس الديوان العالى أن يضع تاريخا شعريا لهذا الإنعـام فنظم أبياتا ختمها بقوله :

يامليك العصر أرخ أننى أنـا توفيق ونيشانى حسن
١١١ ٥٢ ٥٩٦ ٤٢٧ ١١٨
(١٣٠٤ هـ)

وفى هذا البيت اسم المنعم والمنعم عليه .

آثاره :

لم يعمر الأستاذ أكثر من ٤٢ عاما ولكنه ترك آثاراً عظيمة فى أهميتها وأوليتها ، نبدأ بذكر أولها وهو الرحلة البرلينية ؛ ثم نتبعها بثبت مؤلفاته .

الرحلة البرلينية :

هى سلسلة رسائل قيد فيها مشاهداته ، وطبعت بمطبعة الحجر بعنوان (رحلة حسن أفندى توفيق) ومنها مجلد بدار الكتب المصرية رقم ١١٢ جغرافيا .

ويظهر أن السنة التى سنها المرحوم من كتابة رحلته أخذها عن رفاعه بك ثم صارت فيما بعد ، عادة متبعة يتبعها كل من رحل إلى أوربا ، فقد حاكاه فى ذلك رفيق صباه المرحوم الشيخ محمد شريف سليم فى رحلته ، والمرحوم محمود عمر الباجورى فى رحلته إلى مؤتمر استوكهلم ، وكذلك عبد الله باشا فكرى وابنه أمين فكرى ، واحمد زكى باشا (فى السفر إلى المؤتمر) .

وهذه المجموعة من الرسائل ، تحتوى ١٣ جزءا وتجد فى آخر كل واحد منها عبارة « البقية تأتى » .

وقد ذكر فى الجزء الأول سيرة سفره ، وحفلة توديعه وماقيل فيها .

وقد شمل هذا الجزء شيئا عن مدينة الأسكندرية ، وركوبه البحر ، والخواطر التى تنازعته عند مغادرته أرض الوطن ، فى كلام طويل من شعر وزجل ، فى قصيده قال فيها :

يامصر مهلا فى الوداع وأجملى ... فلغير وصلك عنك لم أترحل

ودعى فتى عشق الفضائل يدرع ... سيفا يضارع ماضى المستقبل

أنا لاأحيد عن الوداد وان أكن ... عنه أحيد فلن أكون « أبا على »

بك قد نشأت وفيك أسرتى الألى ... بهم أتيه على الزمان وأعتلى

انى امرؤ لايستميل بى الهوى ... لذوى القدود ولاذوات المحجل

وأنا بليلى والعـــلوم كانما تتلى علينـــا سورة المزمل
واذا رنا ظبي بعادل قده فأرى العدالة أن أكون بمعزل
واذا انثنت شمس المحاسن أنثنى عنها وأذكر شيمتى وتجملى
واذا سلمت وشمت حظى مقبلا فبمون « توفيق » العزيز الأول
الداورى عزيز مصر مليكها شبل العلا فرع الملوك البسل
قوم اذا ما المجد حدث عنهم يوما يحدث عن سعيد عن على

أما الزجل فهو طويل جعل فرشه . .

اللى يعيش ياما يشوف واللى يمشى يشوف أكثر

مما جاء فيه : قالت نفسه مخاطبة عقله تشكوه :

حسن بتاعك طول عمره ديما محيرنى ف أمره
وليه بقى يتعب سره ويسيب بلاده وبحر
اللى يعيش ياما يشوف واللى يمشى يشوف أكثر

فقال على لسان عقله يخاطب نفسه :

فقال لها ليه حيرانه وف شبر ميه غرقانه
لازم تكونى وبانه على الزمان فى الخير والشر

قالت له : معلومك فاضى وجاى هنا عامل قاضى
بحسب أنا مانتش راضى بدى التعب ياسى بعجر

فأجاب .

هوه اللى إيده فى الميه زى اللى إيده فى البكيه
كل التعب راجع ليه امانت تسمن وتظمطر

وبعد أن سرد فى زجله حكاية الأرنب والسلحفاة المشهورة ختمه بقوله :

من بعد ده النفس ارتاحت وبسرها بعدين باحت
قالت دى حمله وانزاحت عنا وهنا خلص المسير

اللى يعيش الخ

وينتهى الجزء الأول بوصوله إلى تريستا .

أما الجزء الثانى وهو ٦ صفحات فمن تريستا حتى وصوله برلين وسياحته بها ولغتها ، والنظام العسكرى فيها . ويذكر فيه مروره فى مدينة فينا على المدرسة التى بها نجلا الخديو توفيق وذكر فى ص٣ منه زيارته لبيت الأسلحة ومشاهدته السرج المذهب ، والسيف الذى زين مقبضه بأحجار ثمينة ، هدية من والى مصر « محمد على » .

أما الجزء الثالث وصفحاته ٨ فقد تكلم فيه على مملكة البروسيا ، وما شاهده من افتتاح البرلمان وذهاب البرنس [بسمارك] إليه ماشيا وحفاوة أهل برلين به وهتافهم له بقولهم Hoch « هوخ » أى عال ، وأشار إلى المدالية التى يبع منها ١٠ آلاف قطعة فى أسبوعين ، وقد كتب فيها آخر جملة نطق بها (بسمارك) فى خطابه إذ قال :

نحن معاشر الألمان نخاف الله لاغير .

ويحتوى الجزء الرابع على شرح الحكمة : سعادة الوطن بحسن تربية الشبان — الوطن — التربية — المنزلية .

وذكر فى الجزء الخامس التربية المدرسية والتربية الأدبية وفى السادس التربية المدرسية العلمية .

أما الأجزاء الثلاثة ٧ — ٩ فقد شغلها بتاريخ البرنس بسمارك وزير الامبراطورية الألمانية لاعجابه به . وقد ذكر عن الوزير من تاريخ حياته ومناقبه مادعاه إلى أن يكتب للمترجم شاكراً له عنايته . وقد ذكر فى وصفه أنه أول سياسى فى الدنيا .

قال فى آخر الجزء التاسع ص ٥ (وقد عنيت بذكر ترجمته تفصيلا إجابة لداعى أمانى اخواننا الشرقيين . ولقد أعلم من نفسى أنى طالما رغبت أن أطلع على ماهذا الرجل من الأعمال والأحوال ، كما أنى شغوف حتى الآن بالاطلاع على تراجم أولى الأعمال العظيمة فى هذه الدنيا ، لعلمى بأنها تفيد الانسان كبير المعرفة واتساعا فى الفكر . وعلى ذلك أتمنى لإخوانى التلامذة أن يهتموا

بمطالعة تراجم المشهورين فى العالم ، بحيث يميزون أعمالهم ، صالحها من سيئها فإن ذلك يكسبهم زيادة فى العقـــل وتنويراً به . فتأخذ طباعهم العالية ولا يعبئوا بجسيم الأعمال التى تبيض صحائف تواريخهم ، وتصل بهم وبوطنهم إلى درجة الكمال) أما الجزء العاشر والحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر فقد ذكر فيها برلين وتكلم عن البريد ودار الآثار . ومن الغريب أن الجزء ١٣ جاء فى آخره — كسائر الأجزاء — عبارة : «البقية تأتى» .

مؤلفاته : كان من نتائج وجوده فى برلين نحو خمس سنوات ودراسته بألمانيا تأليف وترجمة عدة كتب . قامت النظارة بطبع كثير منها واستعماله فى مدارسها منها :

١ — البيداجوجيا .

قد وجه المترجم همه إلى فن التربية ، توجيها كان ملحوظا فى رحلاته وسياحاته ودراسته وقراءته ، واطلاعه على أساليب التربية الحديثة ، وبحثه عن أصلحها وأوفقها لمصر والشرق عامة . فوضع أول مؤلف بالعربية فى التربية العلمية . وهو كتاب « البيداجوجيا » أو هداية الأطفال ، كما ترجمها .

جاء هذا الكتاب شاملا لكثير من مباحث علم النفس ، وطرق التدريس العامة والخاصة ، وطرق التربية على العموم . فكان بذلك مربى المربين ، كما صار أستاذ المؤدبين والمتأدبين . ويعتبر صدوره فى وقته بديهة من البدائه الهامة فى التربية ، ونواة مثمرة لعلومها وفروعها .

أقرت نظارة المعارف لزوم طبعه وتدريسه بالمدارس الأميرية ، بناء على قرار اللجنة الصادر فى ١٤ من ديسمبر سنة ١٨٩٠ .

وقد طبع منه جزآن : الاول فى التربية العلمية . بحث فيه عن النفس والجسم والانسان وعن حقيقة التربية وموضوعها وطرقها ووسائطها بوجه عام . وقد أتم تأليفه فى برلين سنة ١٨٩٠ وعمره تسع وعشرون سنة هجرية .

والثانى : فى التربية العملية . بحث فيه عن طرق التعليم العامة والخاصة

وعن نظام المدرسة وتأثيثها الخ . وقد أتم تأليفه كذلك فى نوفمبر سنة ١٨٩١

أما الجزء الثالث : فى التربية التاريخيه ، أو تاريخ التربية فلم يطبع ولم يظهر على مايظهر .

وقد قدمه بأبيات ختمها بآية من آيات الذكر الحكيم قال:

أهدى الكتاب لسادتى وأنا أخ لهمو مقيم
فيه لقد وافيتهم والله بالنبأ العظيم
يتبينون به مطالع حكمة البارى الحكيم
والله يهدى من يشا ء إلى صراط مستقيم

وقد تكلم فى مقدمته عن أهمية التربية عند الامم الغربية وتدوينهم قواعدها ثم أشار الى وجوده فى برلين ، واستكشافه أحوال المعلمين ، والمتعلمين وكيفية التعليم والتعلم ، وزيارته للمدارس العامة والخاصة ، والسافلة والعالية ومشاهدته أكاديمياتهم العلمية والصناعية وتعزيزه ذلك بدراسة البيداجوجيا فى الجامعة وخارجها .

واستعان الله فى وضع كتاب فيها ، إيفاء بحقوق الوطنية . واستخدم فى ترجمته أشهر الكتب المعتمدة ، وراعى عند الترجمة الآداب والعادات المشرقية والشرع الشريف ، والدين الحنيف .

وقد اعتذر فى هذه المقدمة بأنه « كاسد القريحة ، قليل البضاعة ، مشتت البال ، كثير الأشغال ، ناء عن الاهل والاخوان ، بعيد عن الأوطان » (١) وأن كتابه صعب الموضوع ، وعر الطريق ، لم يسبقه كتاب عربى ينسج على منواله الخ .. فيطلب العفو عن الزلات . وإقالة العثرات ، كما كانت عادة قدامى المؤلفين المتواضعين . وختمها بذكر الخديو « توفيق » كعادته فى كتبه .

ب — رسائل البشرى فى السياحة بألمانيا وسويسرا سنة ١٨٨٩

رحلة قام بها وهو معلم اللغة العربية فى المدرسة الشرقية ببرلين . غادرها صباح الجمعة ١٦ من أغسطس . وعاد اليها ١٥ من سبتمبر سنة ١٨٨٩ قطع

(١) البيداجوجيا ص ٣

فيها بلاد المانيا الغربية ، وشمال وشرق سويسرا ، فالمانيا الجنوبية . وقد تم تحرير رسائلها فى أواخر يناير سنة ١٨٩٠ ببرلين . وطبعت بالمطبعة الاميرية سنة ١٨٩٠ بمصر، يليها خريطة المانيا وجزء من سويسرا . وقد بدأها وختمها بمدح الخديو « توفيق » بعد الشكر للمعارف . وقد قدم هذه الرحلة بكلمة أكبرها المرحوم « الشيخ حسن المرصفى » صاحب الوسيلة الأدبية ، وقال إنها أحسن ما كتب فى السفر . قال :

« أما بعد فهو السفر طالما أسفر عن عجائب . وهو الترحال كثر ماأعرب عن غرائب، يدرب الانسان ، ويشحذ الاذهان ، وجدير بمن تحمل رعائبه ، أن ينال رغائبه ، ولو لم يكن منة عظمى ، لما من الله على قريش بايلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فأطعمهم من جوع وآمنهم من خوف »

أشار فى مقدمتها الى أثر الرحلة والسياحة فى توسيع نطاق علمى الجغرافيا والتاريخ، باعتبارهما أساس الرقى ودائرة المعارف . وختمها بقوله « أودعت فيها ماشاهدته بتلكم البلدان والاقطار ، متبعاً فى ذلك السائحين الاوربيين ، مقتديا بأسلافنا الرحالة الشرقيين ، أولى السياحات العربية ، الذين لهم اليد البيضاء فى توسيع نطاق علم الجغرافيا ، وعادات الامم وسار على منهجهم الاوربيون ... الخ » (١)

ثم ذكر أمثلة لهؤلاء الرحالة العرب ، وآثارهم وأعمالهم ومؤلفاتهم قائلا :

« تلك أعمالهم وتآليفهم ، بين ظهرانينا ، فى كل فن وعلم ، ولكن واأسفاه ! نراها ميتة فى جلودها ، لا تجد لها باعثاً لروحها ، أو مطالعاً لأسطرها ، أو طابعاً لها !! ألم يكن طبعها أولى من طبع ثلاثين جزءا من قصة عنترة ابن شداد ، وأبى زيد الهلالى سلامه ، والزير سالم ، وخضرة الشريفة وغير ذلك ؟ » (١)

ولا يفوتنا أن نأخذ عليه ذكره لبعض هذه القصص ، لما لها من الاثر

(١) رسائل البشرى ص ٥٢ ، ص ٥٥

فى الشعب ودراسة الادب وتاريخه ، مع أنه من دعاة دراسة تاريخ الادب العربى ، كما سترى .

جـ — الحركات الرياضية البدنية .

هو كذلك أول كتاب بالعربية فى بابه . أشار عليه يعقوب أرتين باشا بأن يترجم أحد الكتب الالمانية ، فى هذا الموضوع . فعمد الى كتاب الدكتور شريبر أحد مشهورى أطباء ليبسيك بمملكة سكسونيا ، لانه جامع لاهم الحركات ، شارح فوائدها (١)

وقد تم طبعه بأمر وكيل المعارف فى ظل الخديو ، فى سبتمبر سنة ١٨٩٥ أثبت فيه ٤٥ حركة مصورة بخطوط بيضاء ، فى أرضية سوداء ، ثم ذكر بعدها ١٠ تمرينات صحية لمن يشكو مرضاً من الامراض .

وقد صدر هذا الكتاب والمترجم فى مصر ، مفتش بنظارة المعارف .

د — مرشد العائلات إلى تربية البنين والبنات .

فى التربية الجسمية ، منذ الحمل إلى سن البلوغ طبع سنة ١٨٩٧ جمع فيه بين ماتقله عن كثير من الكتب الالمانية ، وما شاهده بأسر أغلب العواصم الاوربية ، وما ورد فى كتب الآداب الاسلامية ، والسنة النبوية (١)

هـ — أصول الكلمات العامية — الرسالة الاولى — طبعت سنة ١٨٩٩ بمطبعة الترقى . ذكر: أنه أيام عهده بتدريس اللهجة العربية المصرية بالمدرسة الشرقية ببرلين، دعته الحال الى البحث فى الألفاظ والتراكيب المستعملة فى المحادثة ، التى تخلفت عن توارد الدول التى حكمت مصر بعد العرب ، وما تناثر من أفواه القبط بعد الفتح العربى ، وما تركه الدخلاء على اختلاف لغاتهم ، فوجد هذه الألفاظ كثيرة . ولما عاد الى مصر وجد من نفسه نزوعا الى متابعة التنقيب عن هذه الألفاظ لإرجاعها الى أصولها . وكان يود لو جمعها فى مجلد واحد ، الا أنه نشرها فى رسائل صغيرة ، تسهيلا لتداولها . فأثبت فى هذه الرسالة الأولى مائة كلمة . رتبها على حروف المعجم (١)

(١) أنظر مقدمة الكتاب .

و ـ سياسة الفحول فى تثقيف العقول طبعت سنة ١٩١٠ بعد وفاته .
جمع فيها من الحكم والأمثال ، وثمرات عقول الرجال ، ماقسمه الى ثلاثة أقسام. الأول ـ على نمط قيل وقال . والثانى ـ حكم وأمثال شعرية . والثالث حكم ونصائح نثرية (لم ينشر هذا القسم الثالث فى الكتاب) . وقد رمى بنشرها الى تثقيف العقول وتهذيب الأخلاق . وقدم لها بمقدمة شرح فيها العقل وأقسامه وكيفية نموه ، وجودة حدسه . وأعقب ذلك بفصل فى كيفية تثقيف عقل الانسان من أول نشأته الى أن يصير كامل العقل . وقد أشار الى الخديو « توفيق » ووكيل المعارف وذكر (دار العلوم) التى شيدت قصور عقله ، وأرقته الى سلم فضله . وكما هى عادته يختتم كلامه بقوله وبالله التوفيق . (١)

هذا وله آثار كثيرة لم تطبع : منها منظومة فى النحو ، وأخرى فى الحساب وتاريخ اليونانيين والرومانيين ، وتاريخ ممالك أوربا الى سنة ١٨٩٠ وحياة العرب قبل الإسلام ، ورواية ليلى ابنة لكيز ، ووصايا الآباء للأبناء . الخ (٢)

هذا . وإن التراث الذى خلفه المترجم ، من المؤلفات المطبوعة وغير المطبوعة ، ينم عن رغبته فى إعلاء شأن وطنه ، وأنه كان يود لو أصبحت مصر وأهلها كما كان يشاهد فى أوربا . وكان يستحث أبناء وطنه على محاكاة الغربيين فى مدارسهم ومعاهدهم ، وطرق تعليمهم وتربيتهم ، وفى خطابه الى أمين سامى (باشا) مثل من هذه الامثلة العليا فى الوطنية . (٣) .

المترجم وأدب اللغة العربية وتاريخه :

كانت دراسة الادب العربى فى القرن الثالث عشر الهجرى سائرة على طريقة المبرد فى كامله والقالى فى أماليه . وكان المدرسون ينحون نحو المرصفى فى وسيلته الادبية ، والشيخ حمزه فى مواهبة الفتحية .

(١) انظر مقدمة الكتاب .
(٢) أنظر ص ٩٢ من كتاب مرشد العائلات و (ص) ٤٧ من رسالة أصول المكاتبات العامية
(٣) انظر ٥ فى ص ٣٥، ٣٦ هنا وفى المؤيد ١٩ يونيه سنة ١٩٠٤

تلك الدراسة المبعثرة ، بعثرة النجوم فى السماء ، أو الرمال فى الصحراء . تضرب فى القواعد تارة ، وفى اللغة أخرى . تتعرض للشعر مرة ، وللنثر آونة . تلمح للتاريخ حينا وتبرق للقصص لحظة .

«وأول من تنبه لتاريخ أدب اللغة ، المرحوم على مبارك باشا ، مؤسس دار العلوم . فعهد إلى الشيخ حمزة فتح الله بالمحاضرة فيه على ماجاء فى كتابه « المواهب الفتحية » ثم عهد الى فقيد الأدب المرحوم المبرور حسن افندى توفيق تعليم هذا الفن فى « دار العلوم » وكان قد تمم دروسه بألمانيا ، واطلع هناك على مصنفاتهم فى آداب لغتهم ، وحسن تنسيقها وترتيب مباحثها. فأخذ فى تأليف كتاب يجمع إلى رقة الأداب جمال الترتيب ، فأصاب حاجة كانت فى أنفس الأدباء الخ (١).»

وإلى المترجم ، يرجع الفضل فى تدريس تاريخ أدب اللغة العربية ، على الصورة التى يدرس بها الآن . فهو لذلك يعد مبتكرا لهذا النوع من الدراسة. ذلك أنه لما رأى منهج الألمان فى دراسة هذا الأدب ، غير هذا المنهج المتبع بمصر . نقل طريقة بروكلمان ، فى تنظيم دراسة الأدب وتاريخه وتقسيمه إلى عصور . وضع معالم هذه الدراسة على هذا النحو ، فاتبعه بعد ذلك أساتذة الأدب العربى ، وساروا على خطته ، وحذوا حذو منهجه .

كتب مذكرته فى تاريخ أدب اللغة العربية لتلاميذه بدار العلوم فكانت نواة لما ألف بعدها ، وصورة مصغرة لما تلاها من الكتب والموسوعات لأنها كانت النبراس الأدبى الذى أضاء السبيل ، والذى أخذ بيد أساتذة الأدب العربى فى مصر وفى غيرها . فهداهم إلى أقوم الطرق .

كتاب تاريخ أدب اللغة العربية :

عندما رحل المترجم إلى انجلترا ، وخلف مذكرته فى تاريخ أدب اللغة العربية، أراد المرحوم أمين سامى (باشا) ناظر مدرسة الناصرية (ودار العلوم)

(١) مذكرات ادب اللغة العربية للمرحوم الشيخ علام سلامة استاذ الادب بدار العلوم وانظر الفقرة التالية الخاصة بكتاب تاريخ ادب اللغة العربية

طبعها على نفقة النظارة كما فعلت فى مؤلفاته السابقة . وكتب إلى المترجم فى انجلترا فأجابه رحمه الله قبل وفاته بنحو أسبوعين . وكتب اليه فى ٢٠ من مايو سنة ١٩٠٤ يقول بعد الديباجة (١).

« وانى أقدم لسيدى جزيل شكرى على حسن ثقته بى ، وقدره كتاب تاريخ أدب اللغة حق قدره، والازماع على طبع نسخ منه على مطبعة (الغراء) للعام المقبل ، ثم حثى على تقديمه للنظارة لطبعه على نفقتها . ومع عظيم الأريحية والسرور ، أتلقى بكبير الثناء وعظيم الشكران ، تلك العناية الجليلة الصادرة من فاضل خبير ، يقدر الأمور حق قدرها ، ويضعها بالمكان اللائق بها . وأحيط شريف العلم ، انى أردت منذ حضورى لهذه البلاد (يريد انجلترا) أن أضع هذا الكتاب على نظام نهائى أرضى عنه ، ويقوم بحاجة الموضوع فحاولت مطالعة الكتب بمكاتب انجلترا كنوز العلم ، وانتقيت ماحلا منها . وبينما أنا كذلك إذ وجدتنى فى بحر متلاطم لاساحل له ، ووقفت فى عدة مواضع لاأزال أنقب عنها كل لحظة . وبذلك اتسع المجال وتشعبت أمامى السبل .

ولقد كان يود الاستاذ براون ، لو يطبعه على نفقته . وخابر جريدة المؤيد فى ذلك ، وتم بينهما هذا الخيال . إلا أن رغبتى فى الكمال أقعدتنى هذه الأيام عن إبرازه فى رداء النقص . وأنا لاأزال اشتغل بترتيب مواضيعه ، وزيادة مواده التاريخية ، التى أكتشفها اكتشافا بمحض الفكر والاستنتاج ولذلك لايتيسر لى أن أرسل تلك الزيادات ، لأن هيكله أخذ شكلا آخر وحجما أكبر من حجمه الأصلى ثلاث مرات ، لغاية الدولة الأموية . ويصعب على الآن فى القريب العاجل ، أن أرتبه وأنظم أبوابه وأنسخه . وإن شاء الله يتم ذلك فى الشتاء الآتى . وبناء عليه أرى طبع النسخة الموجودة الآن بأيدى الطلبة على حالها الأصلى ، حتى أرسل بالنسخة الجديدة، ولايزال

(١) انظر جريدة المؤيد ١١ يونيه سنة ١٩٠٤ بعنوان «إنما يعرف الفضل من الناس ذووه» عقب نبذة من رسالة وردت على جناب اللورد كرومر من المستر براون

المستر براون مؤملا أن يطبعه على نفقته ، ويهديه لقراء العربية ، هدية محضة . وإنى ، كما يعلم سيدى ، ما بخلت عامة عمرى ، ولن أبخل ، بأى خدمة لنظارة المعارف . وبودى أن أقدم هذا الكتاب للنظارة هدية ، كأمثاله السالفة ، برا بها ، كما يبر الولد المطيع بوالده الكريم ، ومنى لحضرات إخوانى ، خالص الود ورائق السلام ، ولعزتكم فائق الاحترام والاجلال أقدم ؟

المخلص

حسن توفيق

وقد يدرك القارىء أن موته (٣ يونية سنة ١٩٠٤) حال بينه وبين ظهور كتابه الجديد ، وطبعه على الصورة التى كان يفكر فيها . غير أن الوزارة طبعت رسالته الصغيرة بمطبعة مدرسة الفنون والصنايع الخديوية ١٩٠٦ ووزعتها على الطلبة

وقد جاء فى آخر الرسالة التى طبعت بمدرسة الصنايع سنة ١٩٠٦ بخطه :

بعونه تعالى وحسن توفيقه تم الجزء الاول من كتاب آداب اللغة العربية ويليه الجزء الثانى ، وأوله اللغة العربية فى عصر الدولة العباسية الخ ...

وقد علمت من الأستاذ محمد على مصطفى عميد المفتشين ، وكان مساعدا للدكتور براون بكلية كمبردج بعد سنة ١٩١٨ . إن الدكتور براون محتفظ بهذا الاثر الجليل ، يضن به على أعظم صديق . وقد حاول أخونا محمد أن يحصل على هذه المذكرات ، فقال له ، كل المكتبة تحت تصرفك ، إلا هذه المذكرات .

وهو بهذا يناقض ما جاء فى رسالته إلى مفتى الديار المصرية ، بعد وفاة المترجم ، من أنه « حفظ عنده ما كان يكتب (الفقيد) من كتاب فى الادبيات العربية ، لكى ينظر فيه ويرسله من بعد » (١)

تنبيه :

نشرت مجلة « الكتاب » فى عدد يوليه سنة ١٩٤٧ ترجمة ضافية له ، يحسن لمن أراد الاستزادة من سيرته أن يطلع عليها .

محمد عبد الجواد

الاستاذ بمعهد المعلمات بالزمالك

(١) انظر جريدة « المؤيد » بعنوان « انما يعرف الفضل من الناس ذووه » فى عدد ٤٢٨٠ ص ٥ فى ١٩ من يونيه سنة ١٩٠٤